

الفِرَق المتطرّفة

جرت العادة، بعدم ربط الآثار النفسية الناتجة عن الانضمام للفرق المتطرّفة، باضطراب إجهاد ما بعد الصدمة، علماً أن العيش في مجتمعات مقيدة منعزلة عن العالم، قد يسبّب ردود أفعال حادة طويلة المدى بأشكال متنوعة.

«موت الأحياء»

يتحدّث جيل ميتون Jill Mytton المختص النفسي القانوني والمحاضر الرئيس في جامعة شرق لندن، والمتخصّص في التعامل مع أعضاء سابقين لفرق متطرّفة عن «موت الشخصية» أو «قتل الإرادة» اللذين ينجمان عن الأثر المتراكم من منعك عن «الاحتفاظ بشخصيتك». فكل من ينشأ ضمن جماعة متطرّفة يتقيّد بطرق تفكيرها وتصرفاتها ومشاعرها، كما يُرصفُ له الطريق لباقي جوانب حياته اليومية، فلا يحدد عنه تبعاً لتعاليم تلك الجماعة، لأن طبيعة مثل هذه الجماعات تدور حول الاستحواذ على متبّعيها ضمن حدودها، وتتبع في ذلك عدة أساليب.

قصة سارة Sarah

ترعرعت سارة وسط عائلة من الطبقة الوسطى في مدينة كبيرة، تبعد عدة أميال شمالي لندن. التقى والداها لأول مرة عند طائفة دينية لقراءة الإنجيل، ولشدة التزامهما بهذه الطائفة أصراً على أن يلتزم كل من أولادهما الخمسة الذين كانوا ثمره زواجهما هذا، بدستور تلك الطائفة وطقوسها. لكن كان لابنتهما الثالثة أفكار مختلفة، إذ قرّرت، لما بلغت الثامنة عشرة من عمرها، أن تنفصل عن طوق الخناق المفروض من الطائفة وحياتها العائلية مجتمعين، خوفاً على مستقبل بقائها الذهني.

كانت حياة سارة اليومية في المنزل ثقيلة الوطاء، بيد أنها كانت تعلم تماماً أن لا مجال لديها لإثارة الشكوك حول معتقدات عائلتها، كما كانت تعلم أنهم لن يرضوا أن يفكوا أسرهما طائعين لتنتقل بحرية إلى العالم الخارجي. ولمخاوفها تلك من ردود أفعال أهلها، تسلّلت في ظلمة ذات ليلة متوجهة إلى لندن، وكل ما في حوزتها 150 جنيهًا، كانت قد ادخرتها على مدى سنتين ونصف. وعلى غير عادة مثيلاتها من غير المتدربات مهنيًا، حصلت وبسرعة على وظيفة مبيعات قرأت إعلانها في محطة أنفاق. كان الراتب معقولاً نسبياً، إلا أن ضغوط العمل اليومية لم تدع لها مجالاً للتحدّث مع زملائها في العمل.

أحبّت سارة سرية عملها، واستمتعت بحريتها، بل إنَّها، ولأول مرة، خاضت تجارب اجتماعية جديدة. ارتاحت لهروبها من واقعها

الاجتماعي، لكنها كانت دائمة القلق من أن تعود «إلى الأسر ثانية»، فظلت بعيدة عن أهلها مدة سنتين. لكنها اشتاقت إليهم، فذهبت لزيارتهم من غير سابق إنذار في يوم عطلة نهاية الأسبوع. كان رد فعل أهلها تجاه عودة ابنتهم الطائشة سريعاً وقاسياً، فحبسوها بغرفتها في المنزل، مدة ستة أسابيع، من غير اتصال بأحد سوى عائلتها العدائية أو بعض أفراد الطائفة العدائيين كذلك. صاحب فترة الأسابيع الستة تلك، عدة أحداث مؤدية للصدمات، وتضمنت جلسات عديدة تُطلقُ فيها الأسئلة عليها، لإجبارها على الاعتراف أمام الملاً بكل صغير وكبير قامت به إبان غيابها عن الطائفة، حتى الدقائق التفصيلية من حياتها.

تمكّنت أخيراً من الهرب ثانية في ظلماء الليل، لكنّها طلبت هذه المرة مساعدة إحدى المنظمات أو الهيئات التي تقدّم العون والنصح، وأحالتها بدورها إلى مركز مختص بالطوائف والفِرَق المتطرفة، فأحالها بدوره إلى مجموعة لتقديم المساعدة بلندن، تُدعى مجموعة Catalyst، قامت بتنظيم جلسات استشارية لها تتعلق بالصدمات.

تحدّثت سارة خلال جلساتها عن كيفية استحواذ تلك الطائفة على تفكيرها ومعتقداتها، فغرست فيها بُدّاً كل حضارة خارجة عن نطاقها باعتبارها شيطانية شريرة وغير آمنة. واجهت خلال الأسابيع الأولى من حريتها صعوبات حتى في أمور بسيطة كطلب وجبة في أحد المقاهي. لكن ازداد شعورها بالصدمة عندما علمت من خلال وسيط أن والدها مريض في أحد المستشفيات، فبحثت عن اسمه ووجدته،

التكيف مع صدمات الحياة

وعلمت أن والدها مصاب بالسرطان. اتصلت بالجنح الخاص به مستعلمة عن حالته، فأخبرتها الممرضات بتعليمات عائلتها الصريحة بعدم إفصاح أي معلومة مهما كانت لابنتهم العاقبة، ولم يُجد أي اتصال، كذلك، بوالدها أو إخوتها. فهمت عندئذ أن عليها تقبل حقيقة، أنه في حال موت والدها فإن أحداً لن يخبرها، وأن عائلتها قد تبرأت منها كلياً. احتاجت سارة إلى عدة شهور من الاستشارة، ودعم المختصين، لإعادة بناء حياتها والتوصل إلى حلول مع ماضيها، وبخاصة فيما يتعلّق بالصدمات التي عانت منها يوم فرّت من الأسر، وتقبل حقيقة كونها الآن «يتيمة» منبوذة من عائلتها، ربما إلى آخر حياتها.

إن هذا السيناريو «أن تحجب العائلة معلومات»، أو «تتبرأ من أحد أعضاء طائفة سابقين» أمر مألوف، فهناك أمثلة عديدة لرجال أو نساء، ممن جرى لهم من عوائلهم ما جرى لسارة، بل وحتى أسوأ من ذلك. ومن هنا فاصطلاح «موت الأحياء» - الذي يستعمله المنشقون عن طائفة متطرفة حين يفقدون كل اتصال بأفراد عائلتهم المقربين - غالباً ما يسبّب لهم الأسى والحزن.

إن ردود أفعال المنشقين عن تلك الطوائف تكون في الواقع حادة لدرجة أن مجرد التحدث عن تجربتهم يصبح أمراً مكرباً، فتصعب مساعدتهم. هذا فضلاً عن أنه، لا محالة، قد تم تلقينهم، وغسل أدمغتهم أو السيطرة عليهم كيلا يفسحوا أسرار الطائفة المتعلقة بهيكلتها، أو أنشطتها أو أعمالها.

الفرق المتطرفة والـ PTSD

وجدت جيل ميتون، استناداً إلى إحدى الدراسات لأكثر من 200 عضو سابق لإحدى الطوائف الأصولية، أن ما يُقدَّر بـ 60٪ منهم يعانون من أعراض الـ PTSD الكلاسيكية، كالكوابيس والأفعال المُقحمة وتجنُّب كل ما يذكرهم بتلك الطائفة. كما أن نسبة حوالي 15٪ قد يتم تشخيصها كحالات نضج تام للـ PTSD، لولا أن حالاتهم لا تندرج تحت الحوادث المؤهِّلة لتكون مسبِّبة للصدمات حسب معايير الـ DSM IV. حتى إن جيل نفسها، وبعد انشقاقها عن الطائفة أكثر من ثلاثين سنة خلت، ما زالت تعاني أحياناً من كوابيس وأفكار مقحمة رغم معالجتها الاستشارية للصدمات. وأخبر أعضاء سابقون قامت بدراساتهم، عن مشكلات شائعة تعرضوا لها، مثل صعوبات في اتخاذ القرارات وتحمل الغموض، وكذلك الصعوبة في الانتماء لجماعةٍ ما. إن لجيل، أكثر من خمس عشرة سنة من الخبرة في مساعدة أعضاء سابقين لتلك الطوائف، على التكيف مع حياتهم الجديدة «كغريباء في بلادهم». كما قامت بإنشاء مجموعة تقوم بمساعدة هؤلاء عبر البريد الإلكتروني، بل ساهمت أيضاً، في أحد مواقع الإنترنت التي أنشأها أعضاء طائفة سابقون في الولايات المتحدة. وقامت أيضاً بتقديم النصح إلى كل إنسان غير محظوظ وجد نفسه مصدوماً من جراء انتمائه الحالي، أو السابق، لطائفة متطرفة، بأن يتصل بجماعات مثل: مركز معلومات الطوائف Cult Information Centre والكاتاليسست Catalyst، إذ تقوم مثل تلك

التكيف مع صدمات الحياة

المؤسسات بوصول كل من يحتاج المساعدة باستشاريين أكفاء لمعالجة الصدمات .

تقترح جيل على كل ذي اهتمام بتوسعة بصيرته في طرق تلك الطوائف بالتلاعب والاستحواذ على أعضائها، بقراءة كتاب (القلوب المأسورة، العقول المأسورة: التحزّر والمعافاة من الطوائف الدينية والعلاقات الشرسة) Captive Hearts, Captive Minds: Freedom and Recovery from Cults and Abusive Relationships .